صور الشيخ بوعمامة
في المأثور الشعبي

الأستاذ خليفي عبد القادر
جامعة وهران

بين التراث المكتوب والتراث الشفوي:

جرت العادة عند مختلف الشعوب أن تحيي أمجادها الماضية وتستعيد ذكريات أبطالها ،فتنتشر أخبارهم لتذكير النشء بثراء تراثهم وصلابة مقدساتهم.

وينقسم تراث الأمم والشعوب إلى قسمين :تراث مكتوب في الوثائق والمخطوطات يتداوله المتعلمون ،وينحصر في الأماكن الرسمية كالمكتبات العامة والخاصة وبين المثقفين ،وتراث شعبي غير محدد بزمان ولا مكان يتناقله الناس عن أسلافهم ،تضمه صدور الرواة الشعبيين من عامة الناس.

وإذا كان التراث الرسمي أو المكتوب يعبر عن الأحداث من وجهة نظر الجهات الرسمية ،فإن التراث الشعبي يعبر عن وجهة نظر الجماهير الشعبية من مختلف القضايا التي تمس حياتها والأحداث التي تمر بها.

ويزداد ثراء التراث الشعبي كلما خمد التراث المكتوب ،وهذا ماحدث خلال الفترة الإستعمارية بالجزائر(1830- 1962) التي خمد فيها القلم بعد استشهاد أو هجرة العلماء والزعماء ، فبرزت الذاكرة الشعبية تبدع وتختزن ثم تنقل وتنشر، وقد استغلت الجماهير الشعبية ذلك التراث لتعبربه عن وجدانها وتحافظ به على وجودها وتدافع به عن نفسها.

إن تعرض مختلف الفئات الشعبية إلى الإضطهاد والحرمان المستمر من قبل المستعمر جعلها تعود بمخيلتها إلى أبطالها القريبي العهد والبعيدين ،وراحت تستعيد بطولاتهم في مواجهة الأعداء نثرا عن طريق الأخبار والحكايات ونظما عن طريق القصائد والمقطوعات الشعرية.

ظهور حركة الشيخ بوعمامة:

برز الشيخ بوعمامة من بين الأوساط الشعبية المقهورة ،في وقت كانت فيه الأجزاء الشمالية من البلاد قد خضعت للسيطرة الفرنسية .أما المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر - التي كان الشيخ متواجدا بها- فلم تكن قد خضعت فعليا للسيطرة الإستعمارية الفرنسية آنذاك(1875- 1881).

لقد قاوم الجزائريون الإستعمار في الشمال والجنوب وخاضوا حروبا عديدة انتهت كلها بالفشل ميدانيا ، إلا أن آثارها بقيت في وجدان الشعب .وكان سكان المنطقة الجنوبية على اتصال بكل تلك الأحداث لما كان يربطهم من صلات بشمال البلاد عن طريق رحلتهم التجارية الصيفية السنوية ولوصول أفواج من مقاومي هذه الجهة إلى بلادهم، بعد أن اضطروا إلى ترك أوطانهم فلجأوا إلى اخوانهم في الجنوب لمعاودة المقاومة والدفاع عن حماهم في الوقت

المناسب، كل ذلك أبقى على جذوة المقاومة واستمراريتها وتواصلها.

إن مجرد قرابة الشيخ من العائلة الشيخية التي قاومت الفرنسيين منذ سنة 1864 تجعله على وعي تام بما كان يجري في البلاد ، خاصة وأن زيارة ضريح جد العائلة (سيد الشيخ) كانت واجبا مفروضا على الأحفاد والمريدين. هناك تحت قبة سيد الشيخ وعلى أطرافها كان الناس يتداولون أخبار الساعة ويتجاذبون أطراف الحديث حول الوضع في البلاد وما آلت إليه مقاومة أولاد سيد الشيخ من جهة وما آلت إليه الطريقة الشيخية نفسها من جهة أخرى.

كانت هذه هي جل اهتمامات الشيخ بوعمامة، الذي استقر ببلدة مغرار التحتاني, بعد أن أشار عليه معلمه ومربيه الصوفي سيدي محمد بن عبد الرحمن مقدم الطريقة الشيخية في بني ونيف، بالإستقرار هناك وفتح زاوية شيخية لتجديد الطريقة واحياء أذكارها ونشرها بين الناس في هذه البلدة، بلدة مغرار التحتاني. انبجست شمعة الشيخ في ليل الجزائر البهيم ،أضاءت لتنير الدروب المظلمة وتبصر العقول النائمة وتهدي النفوس المتوانية المترددة.

لقد أصبح الشيخ بوعمامة بعد فترة قليلة من استقراره بهذه البلدة مقصدا للناقمين والمظلومين، يستعيدون به ذكريات الفاتحين الأمجاد ويستلهمون منه أنوار الهداية وسبل السعادة.

وهكذا كثر زواره ومريدوه وانتشرت أخبار الطريقة المتجددة ،وبرزت مكانة شيخها الوقور النشط.

لم يكن الشيخ بوعمامة رجل دين تعبدى فحسب ،رغم أن مكانته التي اكتسبها باعتباره مرابطا وشيخ زواية ،تعني العبادة والعزلة وترك الدنيا ، بل لقد نظر الشيخ إلى معنى الرباط حسب المضمون الإسلامي فعمل بموجبه .فالمسلم عندما يرابط على تخوم بلاد الإسلام يعبد الله ويعلم الناس، ويتمم ذلك بالدفاع عن البلاد ضد أعداء الدين ، هذا ما وضعه الشيخ نصب عينيه.

إن تدينه هذا لم يكن تدينا ظاهريا ،أي حبا في الظهور ، بل كان في هذا الجانب تدينا حقيقيا ، لأن التدين القائم على حب الظهور تدين مزيف، يقصد منه خداع الناس .إن الرجل المتدين حقا هو الذي يحجم عن ارتكاب أية معصية حتى ولو كان بمفرده في مكان مقفر لاقتناعه بأن الله يراه ويحاسبه على معصيته.وتدين الشيخ لم يمنعه من الإهتمام بأمور أصحابه الدنيوية ،بل عمل على تنظيمهم وإعدادهم لليوم الموعود .وهكذا عين لكل قبيلة "مقدما" مهمته تعليم الناس أمر دينهم ونشر الطريقة الشيخية بينهم وإعدادهم لليوم المنتظر ،وكانت رسائله إلى القبائل أن "حضروا السلاح لقرب فرحة المسلمين".

لم تكترث السلطات الفرنسية أول الأمر بهذا المرابط الصغير -كما جاء في بعض الكتابات الفرنسية -وعندما تيقنت هذه

السلطات من الخطر الذي أصبح يشكله على مستقبل مستعمرتها ،على اثر التحذيرات التي وصلتها من أعوانها الجزائريين. وبخاصة ما كان يقوم به مقدموه لدى مختلف قبائل الجنوب الغربي من تنفير و إعداد للكفاح المسلح ،بادرالفرنسيون إلى محاولة وقف هذه الحركات المشبوهة لهؤلاء علهم يتفادوا ما كان يمكن القيام به ، ولكن الأمر فلت من بين أيديهم وأعلن الشيخ المقاومة سنة 1881.

مأثورات الشيخ بوعمامة:

يعتبر الشيخ بوعمامة أحد الأبطال الشعبيين الذين حملوا لواء المقاومة باسم الجهاد ، فناصره الشعب والتف حوله ، وقدم النفس والنفيس على مذبح الحرية والفداء ،وعندما اضطر الشيخ المجاهد إلى الإنسحاب نحو المغرب الأقصى تحولت مقاومته إلى ذاكرة الناس تحكي بطولاته وتقص أخباره.وينشد الرواة القصائد والمقطوعات الشعرية في تجمعاتهم المختلفة ليشيدوا ببطولاته أو ليبكوا رحيله محتجين على الوضع المأساوي الناتج عن السياسة الإستعمارية .

لقد كانت تلك الأخبار والقصائد بمثابة السند الروحي للشعب المقهور ،تقوي فيه عزيمة الصبر ،وتخلق التضامن والتآزر بين الأفراد في انتظار اليوم الموعود ،يوم التحرر من العبودية والإستغلال.

لقد انتخب الشعب بطله هذا من تاريخه وواقعه، وجمع فيه الحلم والحقيقة، بعد أن وجد فيه كل سمات البطولة التي يؤمن بها. ،فهو من عائلة محترمة(مْرابط)، وهو شيخ زاوية وزعيم لحركة جهادية . وهكذا وجد الشعب في هذا البطل أهم خصائص البطولة التي يراها ويؤمن بها.

لقد برز الشيخ بوعمامة إلى الوجود ،ودخل التاريخ من بابه الواسع في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر عندما أعلن الجهاد ضد القوات الفرنسية الغازية ،وواصل عمله بين رفقائه وأتباعه إلى أن انطفأت شمعته في بداية القرن العشرين(1908).

ورغم وفاة الشيخ فإن مأثوراته الشعبية المعبرة عن حركته الصوفية والجهادية ما تزال متداولة في المناطق التي كانت مسرحا لحركته ، وبين السكان الذين شارك أسلافهم فيها .كما أن نساء تلك الجهات ما تزال ترددن إلى اليوم في تجمعاتهن مقطوعات تدعى محليا بـ"القول". وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على ثراء الثقافة الشعبية من جهة ، وتمسك الناس بمآثرهم وأمجادهم يعيشون لها ومن أجلها من جهة أخرى.

من هو الشيخ بوعمامة: ماصفاته وما خصاله؟هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال بعض الوثائق المكتوبة والأقوال الصادرة عنه، اعتماداً على الرواية الشفوية.

إن المعلومات المروية التي سنعتمد عليها صادرة عن رواة قريبي الصلة بالشيخ. فهم إما من حفدته أومن أبناء وأحفاد مقدميه ورجاله الذين عاشوا معه وناضلوا إلى جانبه أو من نفس العائلة الكبيرة أولاد سيد الشيخ. وهم في أغلبهم رواة مشهود لهم بالرواية المتقنة والقدرة على الحفظ ،أي أنهم أشخاص رواد في مجال التراث الشعبي ،وبخاصة المسنين منهم ،باعتبارهم قريبي الصلة بمن سبقهم.

ويعيش مجمل هؤلاء في الجهات الجنوبية حيث النقاء والصفاء ،نقاء الطبيعة وصفاء النفوس .فالسكان البدو هناك لم تؤثر فيهم مظاهر التطور والتغير السريعة التي يشهدها العالم اليوم ،مثلما أثرت على الجهات الشمالية من بلادنا ،ثم إن المسنين من الناس هم أبعدهم عن التغير السريع ،بل هم إلى القديم أقرب،لأنهم الأشد تمسكا وتعلقا بماضيهم،لذلك فهم ينقلون ما سمعوا عن أسلافهم معتبرين ذلك الحقيقة الصافية التي لا مجال للشك فيها.

إلا أن الباحث يستطيع عندما يدقق فيما ينقل،التمييز بين ماهو تاريخ حقيقي وما هو من قبيل المبالغة،أي ما يرتبط بالأحداث والوقائع التاريخية من جهة ،وما يرتبط بضمير الشعب ووجدانه المتحرر في كثير من الأحيان من النقل الحرفي والتسجيل الآلي من جهة ثانية.

ويعني اليوم عدد هام من العلماء والباحثين في العلوم الإنسانية بالتراث المروي باعتباره المعبر الحقيقي عن مكنونات الشعب وأحاسيسه .ولقد استند المستعمرون في عهد الاحتلال على هذا التراث لمعرفة تفكير الشعوب والتعرف على عاداتها وتقاليدها وأعرافها حتى يسهل عليهم السيطرة عليها بأسهل الطرق.

لقد اتصف الشيخ فيما وصلنا عنه بحسن الخلق ولين الجانب ،كان ورعًا تقيا. يعامل الناس بكل لطف وإحسان. نستدل على ذلك بما ورد في صحيفة البرهان المصرية الصادرة بالإسكندرية في 04 أوت 1881 التي أوردت أن الشيخ "كان شديد السطوة على جيوشه، غير أنه لين العريكة مع من يلازمه منهم.."[1] فهو شديد حيث تجب الشدة ،لين حيث يجب اللين ،فلا ضرر ولا ضرار.

كان يحب الخير للناس ويدعو إلى نبذ الخلاف والفرقة، يعطف على رفاقه، ويقضي حقوقهم في الصحة والمرض. فهو آلف مألوف ،وقد ورد في الأثر أن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون ،فالمؤمن آلف مألوف.

وكان يعفو عمن ظلمه ويرأف بالضعيف ويحنو على اليتيم ،يطعم الجائع ويسقي الظمآن .وكانت زوايته ملجأ لكل هؤلاء وأمثالهم من ذوي الحاجة .

لقد كان يتفقد أصحابه ليلا ليطمئن عليهم ،فيربت على كتف هذا ويبتسم لذاك ويطلب منهم الإستراحة لمعاودة الجد.[2]

وقد حدث في 25 ماي 1881 أن ألقى القبض على قوم أغوية فرندة بزعامة القايد الطيب بن حمو واعتقلهم دون صعوبة ،وهو في أوج الإنتصار بعد معركة تازينة في 19 ماي 1881 ،ثم أطلق سراحهم دون شروط ليستميلهم إليه ،وقد انضموا إليه فعلا.[3] وهذا يدل على حسن السياسة واتباع سبيل الحكمة والموعظة الحسنة بنبذ العنف وإسالة الدماء ،دليله في ذلك تقليد السلف الصالح، وأولهم النبي صلى الله عليه وسلم الذي استطاع بهذه الوسيلة تحبيب الإسلام إلى الأفراد والجماعات رغم محاولات بعض أصحابه استعمال الشدة والعنف ..

وعندما جاءه رجل من أعوان الإستعمار بسمن مسموم- والشيخ مستقر في دلدول- لم يعاقبه ،بعد اكتشاف أمره ،وكان قادرا على ذلك ،ولكنه عفى عنه وسمح له بالعودة إلى بلده قائلا له :"إنك لن تقتلني ولكن الله هو القادر على ذلك."[4]

ينتمي الشيخ بوعمامة، كما ذكرنا سابقا، إلى عائلة أولاد سيد الشيخ ذات الشأن الكبير في الأوساط الشعبية بالجنوب الغربي الجزائري. هذه العائلة التي كان تأثيرها يمتد من حدود ورقلة شرقا إلى حدود فكيك غربا.[5] يحترم الناس أفرادها ويتحاشون إيذائهم لأنهم يمثلون عائلة ذات نسب شريف كمرابطين بوبكريين .

لقد حاول الفرنسيون وبعض أتباعهم تشويه سمعة الشيخ للتأثير على أتباعه ،فقالوا عنه :إنه مشعوذ وفتان ومتمرد ،وأنه ينتمي إلى فرع خامد الذكر ،لأن أولاد سيد التاج لم يكن لهم دور بارز في الأحداث التي مرت بها العائلة الشيخية خلال القرون الماضية .ورغم هذه الإعتبارات التي استند عليها خصوم الشيخ ،فإن هذا الأخير قد حظي بمكانة مميزة بين الأوساط الشعبية منذ استقراره في بلدة مغرار التحتاني (قلعة الشيخ بوعمامة حاليا)في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر،مما جعل الفرنسيين يولونه أهمية كبيرة ،وقد ذكرت تقارير سلطاتهم كثرة زوار الشيخ الراغبين في اتباع الطريقة الشيخية واكتساب محبته وبركاته .ثم ازدادت شكوكهم من مقدميه الذين كانوا يجوبون القرى والمداشر والدواوير ،ورأوا في ذلك تهديدا لمستقبلهم في المنطقة ،لكنهم لم يتمكنوا منه.

علاقة الشيخ بقومه وبني عمومته:

عندما اندلعت المقاومة الشعبية سنة 1881 كان الشيخ هو قائدها العسكري إلى جانب قيادته الدينية ،مما جلب له حسد الحساد وكيد الكائدين ،لذلك ناصبه العداء بعض زعماء العائلة البوشيخية ،لأنهم رأوا فيه المزاحم لهم في الزعامة .واعتبره البعض غير أهل لتلك القيادة ،اعتمادا على ما سبق ذكره من خمود ذكر عائلة أولاد سيد التاج.

لقد كان هؤلاء الزعماء "ناس أهل دنيا"كما يقول أحد الرواة،أما الشيخ بوعمامة فكان رجل دين، ذا خلق كريم، صاحب مبادئ وأهداف نبيلة، إذ كان غرضه تجديد الطريقة الشيخية ونشرها بإحياء أذكارها و أورادها بين الناس بعد أن كادت الطريقة تتمحي لغياب الشيخ الموجه الذي يعمل للتمكين للطريقة،كما كان من أهدافه توحيد جهود البوشيخيين ونبذ الفرقة والخصام بعد توالي الصراع بينهم ،أي الدعوة للمصالحة وتوحيد الجهود في وجه الغزو الإستعماري .[6]

وعندما أعلن الشيخ المقاومة سنة 1881 لتحرير الوطن ،انضمت إليه طوائف عديدة من الناس فتألقت مكانته وشاع ذكره ،مما ضاعف من جهود الكائدين له ،وخاصة من قبل السلطات الفرنسية التي كانت تهدف إلى إضعاف الجميع بزرع الشقاق بين الإخوة وأبناء العمومة، فتضرب هذا بذاك، تستميل هذا بالمال والجاه وتنشر الحقد والكراهية ضد ذاك.

وإذا كان البعض من الجزائريين قد رضوا بتقلد المنصب والجاه فإن الشيخ رفض ذلك وفضل الغربة والفقر على المغريات المادية، وهو لم يطلب الزعامة الدنيوية بل أتته صاغرة ،ولكنها ليست زعامة المتاع والأبهة ،ولكنها زعامة المتاعب والأهوال ،وقد عبر عنها أحد الرواة الشعبيين في قول الشيخ :"الله الله ياربي ، الصالحين اعطيتهم السر والهنا، وأنا أعطيتني السر والهول."[7]

إن أخطر خصم للإنسان هو ابن جلدته فهو الأدرى بعورات الناس والمطلع على خباياهم وأسرارهم .لقد حوصر الشيخ في زاويته وزمالته ذات مرة من قبل بعض أقاربه للقبض عليه .واستعد أصحابه للمقاومة ، ولكن الشيخ رفض ذلك وفضل الإنسحاب من الميدان ،ليس ضعفا ولكن حقنا لدماء المسلمين أن تهرق بأيدي بعضهم البعض ،لقد أقسم أن لايحارب أحدا من اخوته ، رغم إلحاح عدد كبير من مقدميه.[8]

لقد انسحب الشيخ صحبة أسرته الصغيرة،وترك الزاوية تغنم من قبل أولئك الذين فضلوا مطامع الدنيا ومباهجها ، ومطاردةبني عمومتهم الذين فضلوا حياة المقاومة على الخنوع والخضوع.

ويفسر أحد رواة أخبار الشيخ هذا الإنسحاب تفسيرا صوفيا ،فيذكر أن الشيخ رأى رؤيا في منامه ،وهي قول سيد الشيخ له:"إذا أردت ذل ساعة والعزة الدائمة فتخل لهم عن الزاوية "،فانصاع الشيخ للأمر وانسحب.[9]ومن هناك - من نواحي فكيك - هاجر إلى منطقة دلدول بالجنوب الجزائري.

لقد تعرض الشيخ لمثل هذه الإهانة كالشتم والتحقير من قبل هؤلاء الذين اتهموه بإرغام الناس على اتباعه دون حق ،وهم يقصدون القبائل التي تركتهم وانضمت إلى الشيخ ،ولكن رد الشيخ كان لبقا ،يقابل السيئة بالحسنة وبالكلمة

الطيبة[10] ،وكان يذكر أصحابه باتباع هذا الأسلوب في معاملة اخوانهم .

وقد نفى تهمة ارغامه الناس على اتباعه- التي اتهمه بها البعض- بل إنه كان يخيرهم بين الإنضمام إلى حركته أو العودة إلى أوطانهم ،ويذكرهم بأن الوقوف معه يعني التشرد وصعوبة العيش وترك الأوطان.

ولكن الناس اقتنعوا بصفاء سريرته وصدق نهجه، فانضموا إليه وآزروه طواعية رغم ما كانت عليه أوضاعهم المأساوية ،ومنهم من تركه وعاد إلى وطنه لأنه لم يتحمل شظف العيش ونقص الوسائل المادية.

وفي رسالة للشيخ بوعمامة إلى سي قدور بن حمزة-زعيم أولاد سيد الشيخ الشراقة- بعثها إليه من دلدول سنة 1888 ،نرى نموذجا من الأخلاق التي يتصف بها الشيخ.

لقد وردت الشيخ أخبار مفادها أن سي قدور بن حمزة جد قلق من محاولة الشيخ الإساءة إليه لدى السلطات الفرنسية ،فلم ينتظر الشيخ تطور الأمور إلى مالا تحمد عقباه،بل سارع إلى الكتابة إليه منعا للفتنة ،وأخبره أنه لا يد له فيما يصله من أخبار ،هي في الحقيقة ملفقة كاذبة ،وأنه بريء مما نسب إليه،وأنه لا يرضى أن يكون هناك خلاف بين المسلمين مما سيعود بالطبع لصالح الكفار.[11]

فالشيخ يبرئ نفسه مما نسب إليه ظلما وبهتانا من قبل أشخاص همهم إثارة الفرقة والخلاف بين الناس مما يتسبب في خصومات خطيرة قد تصل إلى سفك الدماء وازهاق الأرواح ،وهو عمل يخدم السلطات الإستعمارية التي كانت تقف وراء مثل هذه الأعمال في إطار سياسة فرق تسد .

والشيخ يرفض أن تكون هناك خصومة بين المسلمين ،لأن ذلك سيؤدي إلى كسر شوكتهم وافشال مساعيهم في وقت يجثم فيه الإستعمار بكلكله على كامل التراب الوطني ،وحري بالمسلمين (الجزائريين)أن يتفطنوا لذلك ،وأن ينبذوا الفتن والخصومات ويكونوا اخواة متحابين ،أشداء على الكفار رحماء بينهم.

بعض أقوال الشيخ ومواقفه:

يتداول رواة أخبار الشيخ بوعمامة عددا هاما من الأقوال والأخبار المرتبطة بسلوك الشيخ بوعمامة وكيفية تصرفه في بعض المواقف.

من ذلك ما عرضه الفرنسيون عليه من مال وسلطة مقابل وقف حركته والدخول تحت ظل الراية الفرنسية ،ولكنه كان يرفض ذلك بكل حزم ويرد عليهم بقوله :سأكتفي برغيف خبز جاف مع قليل من الماء ،وأفضله على العيش تحت رايتكم....

أما في الأثر المكتوب فقد أرسلت السلطات الفرنسية"الأمان" إلى الشيخ عدة مرات ،منها الرسالة التي جاءته من قبل المفوضية الفرنسية بطنجة سنة 1892 حيث يقسم له المفوض الفرنسي بقوله :".. احلف لك بالرب سبحانه الذي فرق ديني من دينك بأن يجري فيك من الخير من قبل دولتي ما جرى في أولاد عمك وأكثر منه إن شاء الله..."[12] وفي رسالة الأمان التي بعثها له الحاكم العام لافريير سنة1899 يرد مايلي :"..وأنا أنعم عليك بما التمسته من كرمها المنشود، وهو العهد بالأمان للقدوم إلى بلادنا للاستظلال برايتنا المنصورة..."[13].

فهذان نموذجان من رسائل الأمان التي توصل بها الشيخ من قبل السلطات الفرنسية والتي لم يلب رغبتها. ولكن الرواية الشفوية تفصل الحديث وتقوم بالزيادة والحذف والتعديل وتجاوز المعقول أحيانا .وتذكر الرواية الشفوية أن الشيخ اشترط عليهم ذات مرة أن يسلم على يديه سبعون ضابطا مقابل القبول بعرضهم بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله[14].وهذا في واقع الأمر إسقاط لما كان يقع بين زعماء الإسلام الفاتحين وزعماء البلاد المفتوحة ،حيث كان يشترط على هؤلاء:الإسلام أو الجزية أو الحرب.وإن كان هذا ليس بمحال في أن يقوم به الشيخ .

وقد جاء في الرواية الشفوية أن الفرنسيين عندما أعياهم تعنته، طلبوا منه أن يخبرهم من يكون ! لأنهم وفي الوقت الذي

استطاعوا أن يعقدوا الصلح مع بني عمه (أولاد حمزة)، لم يتمكنوا من ذلك معه .فكان رده أن أرسل إليهم برصاصتين ومعهما قوله :"هذا أبي وهذه أمي" .إنه التهويل والمبالغة التي تتصف بها المخيلة الشعبية ،ولكن هذا التهويل له هدف بعيد ،وهو الإعلاء من مكانة الزعيم وزرع بذرة الصمود والصبر بين الطبقات الشعبية في انتظار الزعيم الذي يعيد الحق إلى نصابه .ثم إن عدم خضوع الشيخ للفرنسيين ومواصلته لمسيرته المعادية لهم، خلقت منه نموذجا مثاليا للبطولة والفداء في وجدان الجماهير الشعبية.

إن الشيخ، البطل الشعبي، حمل لواء حرب دفاعية لرد العدوان ،ورفض كل عروض الاستسلام ،وأصر على الثبات بعد أن ندب نفسه للنضال وعدم المساومة .فكيف يضع السلاح والوطن ما يزال مغتصبا وأيدي القساة تعبث في الأرض فسادا ..وكيف يطيب له أن ينعم بمنصب وجاه ومال ،وغيره يئن تحت وطأة الظلم والاستعباد.. وما عساه يقول للذين كان يدعوهم إلى الجهاد لطرد الكافر المغتصب ؟وماذا يقول للذين تبعوه وتخلوا عن المال والولد لنيل القرب من الله عن طريق الجهاد.؟

وقد استفسره أحد الضباط الفرنسيين ذات يوم عن سبب بغضه لهم رغم ما عرضوا عليه من "أمان". فكان رده ذكيا حيث قال له :"أنا أحبكم وكيف أبغضهم وأنا سأدخل الجنة سواء كنت قاتلا أو مقتولا !!"أليس هذا مصداقا لقوله تعالى:"إن الله

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ،يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا ،في التوراة والإنجيل والقرآن!!"[15]

إن الشيخ يتلاعب بالكلمات والمعاني ،إلا أنها الحقيقة التي لا غبار عليها ،إنها الحرب، والحرب خدعة.

والجنة هي أمل كل مؤمن ،فمجتمع الناس على جميع مستوياته يتخيل الجنة التي سيثاب بها في المستقبل على سلوكه وعمله الطيب في الحاضر. والمتاعب التي يلقاها الناس في الحاضرماهي سوى اختبار للإنسان ليسلك سبيل الخير فيجازى بالجنة.

كما اقترح عليه البعض من رفاقه في آخر أيامه ،الصلح مع الفرنسيين لأنهم أقوياء ،ولأن المغرب يهادنهم ويأتمر بأوامرهم ،فلم يقبل ذلك رغم مرضه وكبر سنه ،بل كان يرد عليهم بقوله :"والله لن أأتمر بأمر أحد ،سواء كان هذا الواحد نصرانياً أم غيره ،سأعيش حرا و أموت حرا ، أعيش مسلما وأموت مسلما على مبادئى الثابتة." وكان يقول لهم أحيانا أخرى:"إذا سمعتم بعد موتي البارود في قبري فتأكدوا أنني في حرب مع الفرنسيين." [16]

الخاتمة :

هذا قليل من كثير مما يتداول بين خلف الشيخ وخلف رجاله الذين وقفوا معه خلال سبعة وعشرين سنة، لم يقبل فيها الشيخ

الصلح مع الفرنسيين، كما أنه لم يرغب في الخضوع للسلطات المغربية التي رآها تتعاون مع الأجانب .

وهكذا قاد الشيخ الجماهير خلال مراحل طويلة قاسى فيها الجميع المتاعب والصعاب .لقد تبدت قدرة الشيخ على القيادة من خلال التجربة الطويلة التي مر بها ،وانتظمت تلك الجماهير تحت قيادته ،فكان يمثل لها النواة التي تتيح لأفرادها الإلتفاف والتمركز حولها. ولولا القدرات المختلفة التي تميز بها الشيخ، لما انتظمت حوله تلك الجماعة الثائرة ،التي لبت نداء الجهاد لمواجهة العدو ،وتخلت عن كل ما كان لديها من أهل ومتاع. لقد أرادت الجماهير مقاومة المستعمر فوجدت في قيادة الشيخ "الشخص الذي يستطيع أن يقدم لها الحل لتوتراتها أو لحاجاتها ودوافعها ."[17]

لقد كان هدف الراوي من سرد أخبار الشيخ شيئين اثنين :إيصال المعلومة إلى الأجيال اللاحقة ووصلها بماضيها من جهة ،وزرع الأمل في نفوس الجماهير التي تعيش كبتا وظلما واستغلالا ، لحين ظهور القائد الفذ الذي يقودها إلى الحرية والإنعتاق من جهة أخرى .وهو بذلك يعبر عن وجدان الجماهير المقهورة برفضها الإنصياع للعدو ولمخططاته واختيارها للحرية على القيود .

ولقد أمدت أخبار أبطالنا التاريخيين ،الرواة الشعبيين بمادة وفيرة من الأبطال الذين جعلهم الشعب مثله الأعلى في الشجاعة والأنفة والحرية.

الإحالات:

1- عبد الحميد زوزو -ثورة بوعمامة 1881- 1908 الجزء ،01، ش و ن ت ، الجزائر ،1981 ص ،42 .

2- رواية سعداوي أم الخير -80 سنة -عين الصفراء 1995 عن حماها بوخلخال بلقاسم رفيق الشيخ .

3- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث قسنطينة، 1980، ص، 250.

4- رواية عبد العالي محمد ولد أحمد -95سنة -عين الصفراء 1995 عن والده الذي زار الشيخ في دلدول -أما اسم المتهم فهو بن صابر.

5- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار الكتاب، ط، 2، البليدة، 1963، ص، 58 .

6- رواية رقيق حسن ولد محمد، 61 سنة، بوشيخي، وهران 1995 عن كبار أفراد عائلته (أولاد سيدي بودواية)الذين كانوا مع الشيخ.

7- رواية الزناتي العيد ولد محمد، يزعم أنه تجاوز القرن وأنه شاهد عيان لحركة الشيخ -راس الما بولاية سيدي بلعباس1995 .

8- رواية قاسمي بوعمامة ولد محمد -87 سنة، ابن أحد مقدمي الشيخ -بلدة المحررة، البيض 1995 .

- تاجي محمد ولد قدور، 92 سنة، شارك والده في حركة الشيخ - المقابلة في تيوت 1995 .

- بوعامر ميمونة بنت عبد الرحمن، أكثر من قرن، حضرت جنازة الشيخ. المقابلة بعين الصفراء 1995 .

- معمري الصحراوي ولد بوحفص، 84سنة -، حضر والده وشارك في الحركة بعين الصفراء1988 .

9- بوعمامة حمزة ولد عبد الحاكم ولد الطيب ولد بوعمامة، 72 سنة، من حفدة الشيخ. المقابلة في عين بني مطهر، بالمغرب الأقصى 1999 .

10- رواية :ريشاوى سليمان ولد العربي، 80 سنة، والده قام بتغسيل الشيخ ،المقابلة في بلدة الواد الأخضر(بني ونيف)1995 .

11- عبد الحميد زوزو ، ثورة بوعمامة، ج،02- ش و ن ت، الجزائر 1983، ص ،.53

12- المرجع نفسه، ص،12 .

13- المرجع نفسه ،ص ، 13 .

14- الراوي :بودواية الحبيب -70سنة -من أولاد سيد التاج -عين الصفراء 1989 .

15- سورة التوبة -الآية :111 .

16- بوعمامة حمزة، السابق الذكر.

17- صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، المدخل إلى علم النفس الإجتماعي، المطبعة الفنية الحديثة، المغرب، -1968 ، ص :89 .